حكايات نحبها جميعاً

(١)

لقد تركت خيراً ...وولدت طهراً

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

ضَاءَتْ لِمَوْلِدِهِ الآفَاقُ

قَبْلَ أذانِ العَصرِ كَانَتِ النِّساءُ والفَتياتُ قَدْ هُرِعْنَ إلىٰ المَسْجدِ الكَبيرِ، وأَخذتْ كلُّ واحدةٍ مِنهنَّ مَكانهَا... ورُحنَ ينتظرنَ الحَفلةَ التي سَتُقامُ فِي المَسجدِ، وذلكَ بِمناسَبَةِ ذكرَى مِيلادِ الشَّفيعِ مُحمَّدٍ ﷺ.

وبَعْدَ الصَّلاةِ والذِّكرِ وَالدُّعاء.. وَقفتِ الآنسةُ (نَجْلاء) فَرحَّبتْ بِالحاضِرات ثُمَّ قالتْ: وَخيرُ مَا نَفتتحُ بهِ حَفلنَا هذا تلاوةٌ عَطِرةٌ من آياتِ القُرآنِ الكَريمِ، حَيثُ تُتحفنَا بها الطَّالبةُ الذَّكيَّةُ (نُورُ الهُدىٰ).

وبكلِّ خُشوعٍ راحتْ (نُورُ الهُدىٰ) تَتْلُو آياتٍ من سُورةِ النَّجمِ.. بينمَا كانَ الحُضُورُ في حَالةِ سَكينةٍ وطُمأنينةٍ ، وذَلكَ تَنفيذاً لتَوجيهاتِ اللهِ سُبحانَهُ وَتعَالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وَبعدَ ذلكَ تحدَّثتِ الآنسةُ (نَجلاءُ) عن بَعضِ مَعانِي الاحتفَالِ بالمَولدِ النَّبويِّ الشَّريفِ، ثُمَّ تقدّمتِ الشَّاعرةُ (نِبالٌ) لِتلقِي قصيدتهَا في هَذِهِ المُناسَبةِ.

وَقد كانتْ قَصيدةً عَصْماءَ ، فيهَا من المَعانِي ما يَفتَحُ العُقولَ ويشرحُ الصُّدورَ... واللافِتُ للنظرِ أنَّ غالبيةَ الطَّالباتِ كنَّ يسجّلنَ بعضَ المُلاحظاتِ وما يعجِبهنَّ من الاحتفالِ على دَفَاترَ صِغيرةٍ.

فالطَّالبةُ النَّجيبةُ (نَاهدٌ) سجَّلتْ بَعضَ

الأَبيـاتِ مـن القَصِيـدَةِ الجميلـةِ الَّتـي ألقتهَـا الشَّاعرةُ (نِبال) وَهيَ:

سعِدتْ بمولدِ أَحْمَدَ الأزمَانُ
وتعطَّـرتْ بِعَبيـرِهِ الأَكْـوَانُ
والشِّركُ أَنذرَ بالنِّهايةِ عندَمَا
وُلدَ البَشيرُ وَأشرقَ الإيمانُ
وَلدتهُ آمنةُ النَّقيَّةُ مُشرِقاً
بَاهِي المحيَّا صَاغَهُ المنَّانُ
تَتلألأُ الأنـوارُ في قَسماتِهِ
وَأتمَّ حُسْنَ صِفاتِهِ الرَّحمنُ
وَبَدَتْ لِمَولدِهِ الكَريمِ بَشائِرٌ
قُـدسيَّـةٌ وَتـزلـزَلَ الإيـوانُ

وسجّلتْ تحتَ هذهِ الأَبياتِ:

لِماذا لا أبحثُ عن تَرجمةِ حَياةِ السَّيدةِ آمنةَ ،

لأكوِّنَ مَوضوعاً مُتكاملاً عنهَا ، فأستفيدُ من ذلكَ وأُفيدُ الآخرِينَ؟!

وَسارَتْ أُمورُ الاحْتِفَالِ على أَحْسَنِ ما يُرام ، والتقتْ (ناهدٌ) بصديقاتهَا في حَرمِ المَسجدِ ، وَتبادلتْ معهنَّ التَّهانِي والتَّبريكَاتِ..

ثُمَّ ودَّعتهنَّ علىٰ أَمَلِ اللِّقاءِ في القَريبِ العَاجِلِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ.

إلى رِحَابِ المَكْتَبَةِ التَّاريخيَّةِ!!

وَفي سَهرةِ ذَلكمُ اليوم دارَ في ذِهنِ (نَاهِد) أَسْئلةٌ كَثِيرَةٌ ، واقتراحَاتٌ واحتمَالاتٌ ، وطَالَ وَقتُ السَّهَرِ علىٰ غَيرِ عَادَةٍ.. ، وكُلَّمَا وَضعتْ رأسَها علىٰ وِسادتهَا لِتنَامَ.. إذ بِفكرةٍ تَقفزُ إلىٰ ذِهْنهَا فَيطيرُ النَّومُ من عينيهَا!!

وَبِدُونِ شُعورٍ صَاحتْ: يَا إلٰهي! مَا يكونُ حَالُ الأدباءِ والمفكِّرينَ والمبدعينَ والذينَ يتحمَّلون مسؤوليَّاتٍ عظيمةً؟ كيفَ ينامونَ، وكيفَ يرتاحونَ؟!! وَفجأَةً سمعتْ صَوتَ المِفتَاحِ فِي قفلِ بابِ البَيْتِ، فَعلمتْ أَنَّ والدَها الأُستَاذَ (نَاجِي) قَدْ عَادَ من عَملهِ.. فَتظاهرتْ بأنَّها نائمةٌ..! لكنَّ والدَها مَا إنْ دخلَ صالونَ البَيْتِ، وَرأَىٰ الضَّوءَ فِي غُرفَةِ ابنتهِ حتَّى أَسرعَ إِلَىٰ غُرفَتهَا، وقَرعَ البَّابَ ثُمَّ دخلَ..

ومُباشَرةً اقتربَ منها وقَبَّلها وقال: مَالكِ يا حَبيبتي؟ لَقدْ شَغلتِ بَالِي، لَعلَّ أَمراً ما قَدْ أَصابكِ؟! أَسْأَلُ اللهَ أنْ يكُونَ خَيْراً.

ضَحكتْ (نَاهدٌ) وَقالتْ: سَلَّمك اللهُ يا والدِي، لا شَيءَ إلاّ أنِّي أُريدُ أَنْ أصبحَ كَاتبةً مشهورةً، أَبحثُ فِي التُّراثِ العَريقِ لأستخرجَ منهُ الدُّررَ

والمَفَاخرَ.. فأصوغَها صِيَاغةً جَديدةً تُناسبُ العَصرَ ، لأقولَ للنَّاس: أولئكُم الأُسْوَةُ والقُدوةُ فَهم تَاجُ رُؤوسنَا ، وَهُمْ محطُّ فخارنَا وعزِّنَا..

وَبَدتْ عَلامَاتُ الفَرحِ وَالسُّرورِ على قَسَماتِ وَجهِ والِدهَا.. فَأرشدَها إلى المَكْتَبةِ التّاريخيَّةِ في الحيِّ الشِّماليِّ للمَدينةِ ، حَيثُ فيهَا المَصادرُ وَالمراجعُ والمَخْطُوطاتُ النَّفِيسةُ..

وَفِي الصَّباحِ البَاكِرِ كَانتْ (نَاهدٌ) عَلىٰ مَشارفِ المَكتبةِ العامَّة ، ثُمَّ دَخلتْ إلىٰ قاعاتِها.. وغَاصتْ بينَ الكُتُبِ والمُجلَّداتِ!!

مَعَ بَنِي زُهرَةَ

وَفجأَةً عثرَتْ علىٰ كِتَابٍ يبحثُ عن السَّيدَةِ آمنة بنتِ وَهْبٍ ، ورَاحَتْ تنقلُ منهُ أهمَّ الفَقَراتِ ، وكانَ هذا المُلخَّصُ المُفيدُ..

قُرْبَ البَيْتِ العَتيقِ في مكَّةَ المُكرَّمةِ ، كَانتْ نَشأَةُ السَّيدة آمِنة ، حيثُ دُور بني زُهرةَ تُحيطُ بالحَرَمِ ، ولذلكَ كَانَتْ مَرحَلةُ طُفولتهَا وصباهَا تَدورُ فِي أفلاكِ البَيْتِ الحَرامِ! حيثُ تَخْرُجُ معَ صديقاتهَا إلىٰ جِوارِ الكَعْبَةِ. وينزلنَ إلىٰ حيثُ ماءِ زَمزم.. ويركضنَ معَ النّاسِ بينَ الصَّفا وَالمَروة ..

وَكانَ بينَ قَبيلتهَا ـ بَنِي زُهْرةَ ـ وبينَ بنِي عَبدِ المطَّلبِ الهاشميِّ صِلاتٌ كثيرةٌ ، حيثُ كانَتِ الدُّورُ إلى جوارِ بَعضِها بعضٍ ، وعلاقاتُ القُربىٰ مُتوطِّدةٌ كَثيراً.

ودارَ الزَّمنُ دَورتهُ.. وكبرتِ السَّيدةُ آمنةُ وَأصبحتْ فِي ريعانِ الصِّبا.. ، ورَاحَ شبابُ مَكَّةَ يَتقدَّمونَ لخطبتهَا.. لكنَّ اللهَ أرادَ أَمراً آخرَ...

وَذاتَ يَوم وَفدَ عبدُ المُطَّلبِ علىٰ والِدِهَا ،

وطلبَ منهُ آمنةَ لابنهِ الشَّاب الوَسيم عَبدِ اللهِ..

وتمَّ الزَّواجُ المَيمونُ قُربَ البَيْتِ الحَرامِ، ولمْ يَمضِ عليهِ عِدَّةُ أيَّامٍ حتَّىٰ أُعلنَ عن قَافلةٍ تِجاريةٍ مُتوجِّهةٍ إلى بِلادِ الشَّام.

وَأرادَ (عبدُ الله) أَنْ يُثبتَ للنّاسِ بَراعتهُ في أُمورِ التِّجارةِ، فَطلبَ من وَالدهِ أَنْ يسمحَ لَهُ بالتَّوجُّهِ إلىٰ بِلادِ الشَّامِ، وَهكذا كَان.

واصْطَحبَ (عَبْدُ الله) زوجتهُ (آمنةَ) إلى البَيْتِ الحَرامِ، وبَعْدَ طوافهِ بالكَعْبَةِ، ودَّعَ زَوجتهُ وهو يُحدِّثُها عن أيّامِ اللِّقاءِ القَريبِ، وَعن الأَحلامِ والآمَالِ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

وَبعدَ وُصولِ القَافلةِ إلىٰ بِلادِ الشَّامِ، قَامُوا بِالبيعِ وَالشِّراءِ، ثُمَّ عَادوا باتِّجاهِ مكَّة

المكرَّمة.. ، وَفي الطَّريقِ مَرضَ (عبدُ الله) ثُمَّ مات ... ، فَدفنهُ أَخوالُ أبيهِ من بَنِي النَّجارِ في مَدينةِ (يَثْرِبَ)!!

أمَّا (آمنةُ) فكانتْ تَرقبُ القَمرَ.. تَنتظرُ عَودَةَ زوجِها (عَبد الله).. ولكن اللهَ أرادَ أَمراً آخرَ.. ولمَّا عادَتِ القَافلةُ نَظرتْ (آمنةُ) فَلمْ تَجِدْ زَوجَها ، فأُخْبِرَتْ بِأَنَّهُ ماتَ!!

وَحَزِنَتْ حُزْناً لا مثيلَ لَهُ ، لقدْ كانَتْ تَنتَظِرُ عَودتهُ لتحلمَ بحملهَا.. ، فعَكفَتْ في بيتهَا لا تخرجُ إلاّ لحاجةٍ ضَروريةٍ.. ولا تمضِي أوقاتَها إلاّ قُربَ الكَعبةِ.. تتأمَّلُ هذا البَهاءَ والجَلالَ..

وَوُلِدَ الهُدَىٰ ﷺ

وَلمَّا تَمَّتْ مُدَّةُ الحَمْلِ ، وَضعتْ أَشرَفَ

المَخْلوقاتِ علىٰ وَجْهِ الإطْلاقِ ، وتقدَّمَ جَدُّهُ عَبدُ المطلبِ ، فَحملهُ إلى الكَعبةِ ، وراحَ يَدعُو اللهَ وَيَشكُرُهُ عَلىٰ ما أَنعمَ عليهِ ، ثُمَّ سَمَّاهُ (مُحمَّداً):

وُلِدَ الهُدىٰ فالكَائِناتُ ضِياءُ
وَفَمُ الزَّمانِ تَبسُّمٌ وَثناءُ
الرُّوحُ والملأُ المَلائكُ حَولهُ
للدِّينِ والدُّنيا بهِ بُشراءُ
والعَرشُ يَزهُو والحَظِيرَةُ تَزدهِي
والمُنتهَى والسِّدرةُ العَصْمَاءُ
بِكَ بشَّرَ اللهُ السَّماء فزيِّنَتْ
وَتضوَّعتْ مِسْكاً بِكَ الغَبراءُ
يَومٌ يَتيهُ على الزَّمانِ صَباحُهُ
وَمساؤُهُ بِمحمَّدٍ وضّاءُ

والآيُ تَتْرىٰ وَالخَوارقُ جَمَّةٌ

جِبــريــلُ روّاحٌ بهَــا غَــدّاءُ

ثُمَّ دَفعَ عبدُ المطَّلبِ بالغُلامِ إلى مُرضعَةٍ من مُرضعاتِ بَني سَعْدٍ ، وهيَ السَّيدةُ (حَلِيْمَة) حتَّىٰ إذا ما تَجاوَزَ فترةَ الرَّضاعِ ، وَكَبُرَ ، عَادَتْ بهِ إلى مكَّةَ ، ليأخذهُ جدُّهُ عبدُ المُطَّلبِ ، وهوَ في حَالةِ سُرورٍ لا مَثيلَ لَها.

آهٍ مِنْ شِدَّةِ اليُتْمِ!!

نَظَرَ الطِّفلُ (مُحمَّدٌ) فَإذا أَقرانهُ من الأَطفالِ يَرتَمُونَ في أحضَانِ آبائِهم ، أَمَّا هُو فَلا أَبَ لهُ ، وَتساءلَ: أينَ أَبِي؟

فَقِيْلَ لَهُ: لَقَدْ مَاتَ وَأنتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ.

فَعاشَ فِي كَنَفِ جَدِّهِ ، بينَما كَانَتْ أمُّهُ قَدْ

تَعلَّقتْ بِه تَعلُّقاً شديداً ، فبعدَ فَقْدِ زَوْجهَا لمْ يَعُدْ لَها إلاّ هذا الأَمْلُ وهوَ مُحمَّدٌ.

وَذَاتَ يومٍ سَألَ الغُلامُ الفَتىٰ أُمَّهُ: أَينَ دُفِنَ وَالِدي؟ ولِماذا لا نَزورُ قَبرهُ يا أُمِّي؟

فَتردَّدتِ السَّيدةُ آمِنَة ، لكنَّها وَافقتْ نُزُولاً عندَ رَغبةِ ابنهَا.. فاصطَحبتهُ إلىٰ مَدِيْنَةِ يَثربَ ، وَفِي الطَّريقِ رَاحَتْ تُحدِّثهُ عن أَبيهِ وَمآثرِهِ و.. ، والغُلامُ صَامتٌ حَزينٌ لا يَتكلَّمُ..

وَفِي يَثْرِبَ مَكَثتِ السَّيدةُ معَ ابنهَا زُهاءَ شَهرٍ كامِلٍ زَارَ فيهِ أَخوالَ جَدِّهِ.. وَزارَ قَبْرَ وَالِدِهِ.. وَسعدا فيهِ بِلقاءِ الأحبابِ والأَقارِبِ..

ثُمَّ رحَلا عائدينَ إلى مكَّةَ.. ولمَّا وَصَلا إلى منطقَةِ (الأَبواءِ) مَرضتِ السَّيدةُ آمنةُ مَرَضاً شَديداً ، ورَاحتْ تنظرُ إلى وَلدِهَا نظرةَ

وَداعٍ ، ثُمَّ قالَتْ: كلُّ حيٍّ مَيِّتٌ ، وكلُّ جديدٍ بالٍ ، وكُلّ كثيرٍ يَفْنَى ، وأَنا مَيّتةٌ وَذكْرِي باقٍ ، وقدْ تَركتُ خَيراً ، وَولدتُ طُهْراً!!

ثُمَّ ماتَتْ ، فَدفنَها الغُلامُ مع حَاضِنَته (أُمّ أَيمنَ) فِي منطقةِ (الأَبْواءِ).. وعادَ إلىٰ مَكَّةَ ليعيشَ الغُلامُ اليُتمَ كُلَّهُ!!

أَجلْ!

لَقدْ مَاتَ والدهُ... ثُمَّ ماتَتْ والدتهُ.. وَهذهِ حِكمةُ اللهِ سُبحانَهُ وَتَعالىٰ ، وذَلِكَ لِكَيْ لا يَكُونَ اعتمادُهُ عَلىٰ واحدٍ مِنْهُما ، إِنَّما ليكونَ اعتمادُهُ على اللهِ وَحدَهُ..

وَمَسحتْ (نَاهدٌ) الدُّموعَ مِنْ علىٰ خَدَّيهَا.. وتمتمتْ وهيَ تَقولُ: «هَنيئاً لكِ يا آمنةُ بِمَا شَرَّفكِ اللهُ مِنْ حَملِ أَشْرَفِ المَخْلوقاتِ ﷺ ،

ونَسألُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنا نَعيشُ فِي ظِلالِ سيرَتِهِ وَسُنَّتِهِ ، وأَنْ نَحيا على مَحبَّتهِ ، وأَنْ يكونَ لنا شَفيعاً يومَ المَحشرِ..

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمِين